المحور الثالث:

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

محطّات في مسيرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين «بحاضرة تلمسان» *

د. المختار بن عامر

تحيّة الشيخ ابن باديس لأهل تلمسان:

يا أبناء تلمسان، يا أبناء الجزائر، إن العروبة من عهد تبّع إلى اليوم تحيّيكم وإن الإسلام من يوم محمد صلّى الله عليه وسلم إلى اليوم يحيّيكم، وإن أجيال الجزائر من هذا اليوم إلى يوم القيامة تشكركم، وتثني عليكم، وتذكر صنيعكم بالجميل، يا أبناء تلمسان، كانت عندكم أمانة من تاريخنا المجيد فأديتموها فنعم الأمناء أنتم، فجزاكم الله جزاء الأمناء، والسلام عليكم ورحمة الله.

الشيخ عبد الحميد بن باديس لدى افتتاح مدرسة دار الحديث في سبتمبر 1937م.

تحية تلمسان للشيخ ابن باديس:

تباهت بذكراكم تلمسان [1]

قفي لذكرى عزيز يا تلمسان ... فقد دعاك إلى ذكراه إخوان

قفي لذكراه إجلالا وتكرمة ... فهو الزعيم الذي تهواه أوطان

وكيف يُنسى ابن باديس وجمعية ... لولا مبادئها ما قام بنيان

* - هذا المقال هو فصل من كتاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بحاضرة تلمسان، سيصدر عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف في إطار تظاهرة قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015.

(1) - قالها الأستاذ عبد الله بوعنان في ذكرى ابن باديس يوم 16 أفريل 1969م بقاعة الحفلات ببلدية تلمسان القديمة.

ولا تحرّر هذا الشعب من نظم ... أتى الدّخيل بها يحدوه طغيان
فأيقظ الشّعب من موت الجهالة في ... وقت تحزّب ضدّ العلم عميان
كم شنّ حربا عليهم في جرائده ... وكم رماهم (شهاب) فيه نيران
وبـ(البصائر) أصلاهم لظى حمم ... سلاحه سنّة الهادي وقرآن
انظر إلى "كتشاوه" تعلو أهلّته ... وقد تهاوت من الأبراج صلبان
أمّا المدارس فالإسلام رائدها ... قد زيّنتها بنشر العلم أذهان
فنم قريرًا بدار لا نضال بها ... يرعاك في جنّة الرّضوان رضوان إنّ
الجزائر قد قامت تمجّدكم ... وقد تباهت بذكراكم تلمسان

مقدمــة:

إن الحركة الإصلاحية بقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتلمسان لم تنطلق من فراغ، فقد سبقتها عدّة حركات قادتها شخصيات دينية وسياسية. وقد ساهمت هذه الحركات في نشر الوعي الديني والسياسي لدى الشعب، وأيقظت ضميره، وحرّكت مشاعر نفسه فاستفاق من غفلته كما يستفيق النائم من نعاسه. وقد اعتمدت هذه الحركات على الجانب التربوي فأنشأت المدارس الحرة التي تعلم القرآن الكريم واللغة العربية لأنهما العنصران الأساسيان لبناء شخصية الإنسان الجزائري وربط ماضيه بحاضره، وتغرس فيه روح الوطنية التي تربطه بهذه البقعة الترابية التي يعيش عليها. كما اعتمدت على الجانب الثقافي والسياسي، فأسّست النوادي والجمعيات لتبصّر هذا الشعب بواقعه المر الذي يعيشه، وتدفع به قدُما إلى الأمام نحو التحرّر الفكري والسياسي.

إنّ هذه المدارس والشخصيات والنوادي تعتبر بحق بذورا للإصلاح الديني والاجتماعي بتلمسان قبل ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. فالمدارس ساهمت بقسط كبير في نشر الوعي الديني والتربوي مثل مدرسة الشيخ بوعروق ومدرسة الشيخ مرزوق وقبلهما زاوية الشيخ بن يلّس وغيرها. كما ركّزت النوادي (الشبيبة والإسلامي والسعادة والرجاء والاتحاد)، والجمعية السنوسية والمسارح عملها على نشر الوعي الثقافي.

وكان للشخصيات البارزة من أمثال المفتي شلبي والأمير خالد على وجه الخصوص الدور الهام في نشر الوعي السياسي لدى الشعب في تلمسان.

لقد كانت هذه الحركات تمثل الإرهاصات الأولى لقيام حملة إصلاحية وسياسية شاملة بهذه المدينة، لكنّها -وهذا لا ينقص من شأنها- كانت تفتقر إلى كثير من الأمور منها:

1 - الشمولية: فقد كانت عبارة عن أعمال فردية منتشرة هنا وهناك، ليس بينها تنسيق، والحركة إذا لم تتصف بخاصية الشمولية ضعفت وسهُل كسر شوكتها.

2 - المنهجية: لم يكن لهذه المدارس والنوادي والشخصيات منهجية عمل مضبوطة كما ينبغي رغم المجهودات الجبارة التي كانت تبذلها.

3 - المشروع: كانت تفتقر إلى مشروع مدروس ومحدّد الأهداف والغايات.

لقد أدركت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن الاستعمار جاء بمشروع ضخم، محدّد الأهداف والغايات، وكان يسير نحو تجسيده بخطى ثابتة ومتأنية وبأسلوب مدروس بدقة، فكان لا بد من مواجهة هذا المشروع بمشروع أكبر منه. وكانت حركتها شاملة لكل القطر الجزائري، كما اعتمدت منهجية واحدة ومحدّدة.

لهذا استطاعت أن تقف في وجه الاستعمار بشقّيه الفكري والسياسي، وأن تكوّن جدارا يهزّ البنية التحتية للاستعمار فيزلزله، ويجعله يقف على شفا جرف هار.

ومن هذه الحركات التي واكبت عمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتلمسان ومهّدت لها وكانت رافدا لها بعض الشخصيات الدينية والسياسية مثل القاضي شعيب ابن علي الجليلي ولد في سنة 1259هـ الموافق لسنة 1843م وأصله من قرية سبع شيوخ قرب الفحول من ناحيّة تلمسان، وتولّى قضاء تلمسان لمدّة طويلة حتّى سمّي قاضيا للقضاة بها وكانت له مشاركة في عدّة علوم نقليّة وعقليّة ولسانيّة، وكان من بين الذين رفضوا التّوقيع على قانون التّجنيد الإجباري، والشّيخ محمّد بن يلّس الذي ولد سنة 1854، وكان له الفضل في نشر الطّريقة الدّرقاويّة بتلمسان، ولاقى مضايقات عديدة من قبل الاستعمار الفرنسي الذي كان يمنع التّعليم بغير رخصة، ونفته الإدارة الفرنسيّة إلى قرية المالح، ثم هاجر إلى الشّام بعد فرض قانون التّجنيد الإجباري، والمفتي جلّول شلبي الذي ولد سنة 1844م، وتولى مهمة الإفتاء بتلمسان واشتهر بخطبه ودروسه بالمسجد الأعظم ويعتبر من أوائل الذين طالبوا باستقلال الجزائر وهو

زعيم الثّلاثة الذين رفضوا التّوقيع على قانون التّجنيد الإجباري وحرّض النّاس على الهجرة من تلمسان وعدم الرّضوخ لهذا القانون سنة 1911م.

ومن الشخصيات السياسية الأمير خالد الذي زار تلمسان سنة 1919 م و1922م و1923 م وكان له الفضل الكبير في نشر الوعي السياسي بها.

ومن المدارس القرآنية الحرة والزوايا نذكر زاوية الشيخ بن يلّس التّي تنتسب إلى الطّريقة الدّرقاويّة في حيّ المدرس، ثمّ انتقلت بعد ذلك إلى حيّ مصطفى الواقع خلف نادي الشبيبة " La coupole"، وتدعى عند العامة (عرصة ديدو) أو (تاقرقارت) التي أصلها تاقرارت، وكان من أهم قواعدها التّعليم والتربية ومدرسة الشيخ أحمد بوعروق الذي ولد سنة 1880 وتبنى أفكار الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا وحمل الفكرة الإصلاحية وساهم في نشرها في وسط الشباب بتلمسان، ومدرسة الشيخ محمد مرزوق الذي ولد سنة 1884م، وكان شخصية عظيمة مثّلت دورا هاما في الحياة الثقافية بالمدينة، وكذا مدرسة الشبيبة التي زرعت بذور الإصلاح بتلمسان ودرس فيها مصالي الحاج الدروس الليلية وزارها الأمير خالد سنة 1923م والمدرسة القرآنية للشيخ محمد السعيد الزاهري الذي ولد سنة 1990، وتصدّر التدريس بتلمسان سنة 1929م قبل مجيء الشيخ الإبراهيمي ، وكان له بصماته في تاريخ هذه المدينة العريقة.

ومن بين الجمعيات والنوادي التي سامت بقسط كبير في النهضة الإصلاحية بتلمسان نذكر نادي الشبيبة الجزائرية الذي تأسّس سنة 1904 م من قبل المعلمين الأوائل للغة الفرنسية، والنادي الإسلامي الذي أُسّس في بداية العشرينيات بعد مجيء الأمير خالد إلى تلمسان ونادي السّعادة الذي أُسّس سنة 1930م من قبل أعضاء نشطين من النادي الإسلامي ونادي الشبيبة وكان هدفه جمع شمل التلمسانيين.

ومن أبرز الجمعيات الفاعلة بتلمسان الجمعية السنوسية الخيرية التي تأسست سنة 1924م، وكان مقرها بحي زقاق الرمان في دريبة زرار، بين شارع خلدون وشارع ديبون عيسى حاليا، ويعتبر الشيخ محمّد مرزوق رئيسها وأحد مؤسّسيها، وتعتبر بمثابة الأم لكل الجمعيات الموجودة آنذاك، وهي كالتّالي مدرسة الشّبيبة "Medersa de la jeunesse"، جمعيّة أحباب الكتاب "Les amis du livre"، جمعيّة أحباب الطّالب، "Les amis de l'étudiant"، وهي فرع عن أحباب الكتاب، وجمعيّة المكفوفين "La sciété des aveugles"، وجمعيّة الحساء الشّعبي "La soupe populaire"، والرّابطة ضدّ الكحول والفساد "La ligue anti alcoolique et anti débauche"، لجنة مساندة الفقراء والمساكين "Bureau de bienfaisanse"، ولجنة مساندة الأمير عبد الكريم الخطّابي زعيم ثورة الرّيف المغربي ضدّ الأسبان منذ عام 1920 م إلى عام 1926م "Comité d'aide à Abdelkrime el khattabi et à la guerre du rif".

ومن روافد الحركة الإصلاحية بتلمسان المدرسة القرآنية للشيخ بكّار مراح المدعو "السي بكّار" الذي ولد سنة 1906م الموجودة بمسجد الشريف التلمساني، التي أرست دعائم العلوم الشرعية واللغة العربية بالإضافة إلى تحفيظ القرآن الكريم.

وكذا بعض الشخصيات الدعوية أمثال الشيخ الفقيه الحاج بن الصديق الهاشمي والأستاذ عبد السّلام مزيان، وبعض الشخصيات السياسية مثل الأستاذ عبد القادر محداد.

وبعض النوادي الثقافية والخيرية مثل نادي الرّجاء الذي تأسّس سنة 1936 من قِبل نجم شمال إفريقيا، وكان له نشاط سياسي وتعليمي وتربوي ومسرحي واسع، وجمعية المحافظة على القرآن الكريم سنة 1936، التي كان شعارها "هلمّوا إلى كتاب الله العزيز"، "كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه

يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه" والجمعية الخيرية التي نشأت سنة 1938م وكان لها دور كبير في النشاط الاجتماعي، والمكتبة التلمسانية " باغلي" التي عملت على نشر االوعي الثقافي في أوائل العشرينيات، وكان مقرها بالقرب من مدرسة الشيخ الزاهري.

كما شهدت مدينة تلمسان حركة علمية نسوية في زمن العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات، تمثلت في إقامة حلقات علمية شملت دروسا في التوحيد والفقه والتفسير، وكذا حلقات للذكر، والصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم، كانت تعرف بـ (المْجَامَعْ)، وقد نشّطتها مجموعة من النساء على رأسهن (المْقَدْمَه) خيرة بنت مامشة زوجة بورصالي، وتزامنت هذه الحركة مع مسيرة الحركة الإصلاحية بهذه المدينة التي كان على رأسها العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي شجّع هذه الظاهرة كثيرا.

الشيخ ابن باديس بتلمسان

لقد كان للزيارات المتكرّرة للشيخ ابن باديس لتلمسان أثرها الكبير في توجيه الأحداث، وصناعة التاريخ الإصلاحي فيها، فقد زارها سنة 1923م من أجل التعارف والبحث عن الرجال المخلصين الذين يحملون عبء الدعوة إلى الإصلاح، وكان قد زارها في حداثة سنه والتقى بالشيخ أبي بكر شعيب بن علي المعروف بالقاضي شعيب والذي منح له لقب (تقريض) ومحدث، وهي بمثابة شهادة وإجازة علمية.[1]

وفي يوم 28 أفريل 1927 م زارها وتعرف على الشيخ مولاي الحسن البغدادي أحد رجال الجمعية السنوسية والشيخ محمد مرزوق، وفي سنة 1931 م جاء

(1) - «باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان» لمحمد بن رمضان شاوش ص 532، وجريدة الشعب ليوم 28 سبتمبر 1987.

الشيخ ابن باديس لتلمسان بدعوة من الجمعية السنوسية الخيرية، التي كان هدفها ترقية الشعب التلمساني اجتماعيا وثقافيا وجمع كلمته، وإخراج الطرقيين من بدعهم وإدخالهم في العمل الإصلاحي، لكنها لم توفق في ذلك مع الأسف، وكل ما حصل هو أنها استطاعت إقناعهم بالاحتكام إلى شخص من خارج تلمسان، فاتفقوا على دعوة الشيخ ابن باديس للقيام بهذه المهمة. فجاء واستطاع بعلمه وهيبته وقوة إيمانه أن يقنع الجميع، فاعتنق الكثير من الطرقيين فكرة الإصلاح.

كما زارها سنة 1932 م بدعوة من عائلة مول السهول الشافعي، وبعد العصر طلب زيارة ضريح سيدي أبي مدين شعيب وعند الوقوف أمام الضريح دعا له بالخير، ورأى رجلا منكبّا على التابوت يدعوه عوض الدعاء له فنهاه عن ذلك، وفي يوم الغد كان الشيخ ابن باديس مدعوّا في نادي السعادة، فاستقبله أعيان البلد بفرح وحفاوة، وبيّن لهم أهداف زيارته لتلمسان وهي إنشاء شعبة جمعية العلماء وترقية الشعب الجزائري...

حاول الشيخ إلقاء درس بالمسجد الأعظم لكنّه منع من ذلك، فتدخّلت الجمعية السنوسية، وبحيلة استطاع أحد أعضائها السيد عبد الكريم بربار أن يأتي بمفتاح قاعة البلدية، وفتحها ونادوا الشباب، وجاء الناس من كل جهة خاصة شبّان أحباب الكتاب، فنظّفوا القاعة وفرشوها. دخل ابن باديس القاعة وصلّى فيها ركعتين وسلّم على الناس، وألقى كلمة التقديم الشيخ الطيب المهاجي الذي رافق الشيخ من مدينة وهران، ثمّ صعد الشيخ ابن باديس المنصّة شرح الآية الكريمة: "فإذا دخلتم بيوتا فسلّموا على أنفسكم تحيّة من عند الله مباركة طيّبة..." وحثّ الناس على المحبّة والإيمان والعمل الصالح والصبر والمتابعة في طريق الإصلاح.

وفي الأخير طلب أعيان تلمسان من الشيخ ابن باديس البقاء عندهم، لكنّه اعتذر إليهم لأنّ أشغاله تقتضي المكوث بقسنطينة، ووعدهم بأن يرسل إليهم رجلا عالما وهو الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.[1]

الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس جالسًا بأحد مقاهي مدينة تلمسان لدى زيارته لها في سنة 1932.

(1) -شهادة السيد محمد الصغير الشافعي والسيد محمد قازي ثاني اللذين حضرا الحفل.

إنشاء الجمعية الدينية:

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله:" تشير إحدى المذكرات الصادرة عن ولاية وهران إلى أنّ الشيخ باديس قد أنشأ بتلمسان في صيف 1932 م لجنة (شعبة) كان سيتولّى رئاستها مزيان أحمد، إمام جامع سيدي إبراهيم المصمودي، ولمّا كان هذا الإمام موظفا رسميا فإنّ الحاكم العام -بطلب من والي وهران- أمر بأن يتخلّى مزيان أحمد عن رئاسة اللجنة، تثبيطا للمشروع وضغطا على العناصر الموظّفة، حتّى لا تتعاطف مع حركة الإصلاح، وقد أمر الحاكم العام بأنّه إذا لم ينجح فصل مزيان أحمد عن اللجنة فيجب تطبيق قانون أكتوبر 1892م الداعي إلى ضرورة الحصول على رخصة مسبقة قبل تكوين اللجنة. وقد جاء في المذكّرة أنّ النقطة الحسّاسة هي تلمسان، وأنّه لا بدّ من مراقبة خاصّة لها".[1]

ولكن أهل الإصلاح بتلمسان يؤكّدون تأسيسها بعد حضور الشيخ محمد مرزوق والشيخ مولاي الحسن البغدادي لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالعاصمة يوم 05/05/1931م ورجوعهم إلى تلمسان حيث ترأسها عبد السّلام طالب، ومن أعضائها الشيخ محمد مرزوق ومحمد الهبري مول السهول الشافعي ومولاي الحسن البغدادي وعبد الكريم بربار، وغيرهم ...

(1) - مجلة الثقافة الجزائرية، العدد 101،أبو القاسم سعد الله، الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية، ص 75.

الشيخ البشير الإبراهيمي بتلمسان

فكرة مجيء الإبراهيمي إلى تلمسان:[1]

يقول الصحفي عبد الرحمن غريب: "كان هدف الشيخين عبد الحميد والإبراهيمي نشر فكرة جمعية العلماء المسلمين في غرب الوطن. وهذه النظرية كانت تجسيدا لحديث دار بين أعضاء المجلس الإداري في نادي الترقّي عندما قال الأستاذ الإبراهيمي للجماعة: إنّ الطريقة المعششة في غرب البلاد تحتاج منّا الاهتمام أكثر". وأذكر أنّ الشيخ مبارك الميلي قال للشيخ البشير مازحا: "إنّ أفاعي الزوايا تحتاج لحام مثلك"، وضحك الجميع، وكانت ضحكة الأستاذ محمد الأمين العمودي عالية".

الشيخ البشير الابراهيمي حين دخوله تلمسان في المرة الثانية، ويظهر على الصورة الشيخ مولاي الحسن البغدادي على يساره وابنه محمد على يمينه.

نزوله بتلمسان:

لقد جاء الشيخ البشير الإبراهيمي إلى تلمسان للمرّة الأولى في شهر أكتوبر سنة 1932م دون عائلته، واستقبله جماعة من المصلحين والوطنيين بالقوس الشرفي «L'arc d'honneur» أو ما يسمّى «La Bé d'honneur» وهم ينشدون نشيدا وطنيا لعلّه «عليك مني السلام»، ونزل في بيت الحاج البشير مول السهول الشافعي ريثما أوجدوا له مكانا هو عبارة عن (مصرية[2]) بقي فيها مدّة زمنية.

(1) - «دور الإبراهيمي في انتشار المدارس الحرّة» للصّحفي عبد الرّحمن غريب، بمناسبة الذّكرى الخمسين لافتتاح دار الحديث.

(2) -المصريّة أو المقصورة هي غرفة واحدة كان يجتمع فيها النّاس قديما ثمّ تحوّلت إلى ناد.

وبعد مدّة أتى بعائلته، واستقبله في محطّة القطار ثلاثة من أعضاء شعبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهم الشيخ مولاي الحسن البغدادي والشيخ محمد مرزوق والسيد عبد الكريم بربار والحاج البشير الشافعي وأولاده وآخرون. وممّا يجدر ذكره أنّ محمد الصغير الشافعي هو من أخذ الطفل أحمد طالب ابن الشيخ الإبراهيمي من يد أبيه من نافذة القطار وعمره آنذاك بضعة أشهر.

وبعد ضيافته، نزل الشيخ الإبراهيمي بدار السيد بن عودة حاج سليمان بحي أقادير، يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: " حلّ الشيخ الإبراهيمي بتلمسان أول يناير 1933، [1] فالمدينة نقطة ساخنة بولاية وهران، وحركة الإصلاح أخذت تنمو بها حتى شعرت الإدارة الاستعمارية بخطرها، فهذا الوالي العام بالجزائر يكتب إلى والي وهران بعد أقل من أسبوعين من وصول الإبراهيمي إلى تلمسان يطلب منه الحضور لاجتماع بالجزائر لدراسة عدة مسائل منها "الدعاية التي تقوم بها جمعية العلماء في الجزائر والإجراءات الكفيلة بمحو هذه الحركة التي تتطلب انتباه السلطات العامة." [2]

ويقول الأستاذ محمد قنانش: "في هذا الجوّ المفعم بالنشاطات المختلفة من سياسية وثقافية وبين شباب بدأ يتحسّس طريقه إلى العمل المجدي، وتغيير الوضع القائم، وصل الشيخ الإبراهيمي إلى تلمسان وبدأ يلقي محاضراته في المسجد الأعظم وفي النوادي الثلاثة: نادي الشبيبة، والنادي الإسلامي، ونادي السعادة، وقد كان أصحاب الطرق والزوايا يحضرون دروسه، وألقى عدّة دروس في الزاوية الهبرية، وقد بهر الشيخ الناس بفصاحته وحفظه".[3]

(1) - اعتمادا على الوثائق الإدارية، لكن الثابت عند أهل الإصلاح بتلمسان أنه حل بها في أكتوبر سنة 1932م ، ولعله يقصد دخوله في المرة الثانية.

(2) - مجلة الثقافة الجزائرية، العدد 101، أبو القاسم سعد الله، «الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية»، ص75.

(3) - محمد قنانش، ذكريات وأحداث من الجزائر، المذكرة رقم 5.

زيارة الشيخ ابن باديس لتلمسان في نهاية شهر جوان 1934:

في سنة 1934 زار الشيخ ابن باديس تلمسان وحلّ عند الشيخ الإبراهيمي، وتوجه معه لزيارة بن قلفاط الغوثي، وتناول عنده العشاء. ولكن حلول ابن باديس بتلمسان مرّ دون أن يشعر به أحد تقريبا. وقد حاولت المصالح الاستخبارية معرفة الهدف من مجيئه فلم تخرج إلا بالظن وهو أنه قد يكون جاء للحديث مع الإبراهيمي عن انتخابات جمعية العلماء بالجزائر".[1]

محاضرات الشيخ الإيراهيمي ودروسه :

لقد كانت للشيخ البشير الإبراهيمي بعد استقراره بمدينة تلمسان نشاطات متعدّدة كالمحاضرات والدروس للكبار والصغار، كان يلقيها في النوادي والمدارس الخاصة والزوايا.

بدأ الشيخ الإبراهيمي دروسه الأولى لمدّة أسبوع أو أكثر بالنادي الإسلامي ثم نادي الشبيبة ثم نادي السعادة، كما "ألقى الشيخ البشير الإبراهيمي بعض الدروس بالمسجد الكبير ومسجد سيدي "أبو مدين شعيب" بقرية العباد لكنّها لم تدم كثيرا نظرا للمضايقات التي تعرّض لها من قبل بعض الطرقيين، وكذا الإدارة الفرنسية التي كانت تعتبر أفكاره من الوهلة الأولى ضدّ مصالحها.

كما درّس الشيخ الإبراهيمي في الزاوية الهبرية الواقعة بنهج بني زيّان مدّة تقارب السنة. ثم تركها لخلاف مع بعض أصحابها. فطلب من جماعة الإصلاحيين أن يستقلّوا بمحل خاص بهم فاستقروا في دريبة زرار وأسّسوا مدرسة بها.

مدرسة دريبة زرار:

مدرسة دريبة زرار هي عبارة عن محلّ تجاري للسيد محمد الصغير بوحجر وضعه تحت تصرّف الجمعية التي كان عضوا فيها، تقع بزقاق الرمان بين شارع خلدون وشارع ديبون عيسى، بها سبّورة سوداء معلّقة على الحائط، وحوالي

(1) - المرجع السابق ، ص79.

عشرة طاولات موضوعة على حصائر من الحلفاء، الواحدة منها تتّسع لأربعة تلاميذ، كان بها فوجان يدرّسهما الشيخ مولاي الحسن البغدادي والشيخ الهادي السنوسي بالإضافة إلى الشيخ البشير الإبراهيمي، كانت تقام بها الصلوات الخمس والتراويح في شهر رمضان بإمامة الشيخ مولاي الحسن البغدادي وتعليم القرآن الكريم من قبل الشيخ محمد مرزوق. وهي من المدارس الحرّة الأولى لجمعية العلماء منذ أوائل سنة 1934م حتّى سنة 1937 م حيث افتتحت مدرسة دار الحديث وكان مديرها الشيخ البشير الإبراهيمي.

كثّف أهل الإصلاح نشاطهم بهذه المدرسة حيث كانت تقام فيها ستة أو سبعة دروس تبدأ من صلاة الصبح وتنتهي بعد صلاة العشاء بالدرس العام في التفسير.[1]

يقول الشيخ محمد الصالح رمضان: "والإبراهيمي في تلمسان يحاضر ويدرس العامة والخاصة في المساجد الرسمية حتى منع منها فتحول إلى النوادي والمساجد الحرة وبعض الزوايا، وقد أتم بها شرح صحيح مسلم ومسند الترمذي وغيرذلك من أمهات الكتب قبل أن يؤسس مدرسة دار الحديث سنة 1937م"[2]

الشيخ الإبراهيمي مصدرقلق للسلطات الفرنسية:

"أقيم في صيف سنة 1933 م بتلمسان معرض تجاري لليهود وتوافق مع المولد النبوي واستفزازات الأطفال بلعبهم الحارقة، وقد كان رد التجار على استفزازات الأطفال بما يتناسب وعنجهيتهم، وهذا ما تسبب في تحطيم المعرض وتكسير الدكاكين والقيام بمظاهرة صاخبة ضدّ اليهود. وكنا ساعتئذ ننصت إلى

(1) - محمد قنانش، «ذكريات وأحداث من الجزائر»، المذكرة رقم 1.

(2) -محمد الصالح رمضان، «مدرسة دار الحديث بتلمسان نظرة عامة حول تدشينها ومكانتها بين المدارس» بمناسبة الذكرى الخمسين لتدشينها، 1987.

المحاضرة التي كان يلقيها الشيخ البشير الإبراهيمي بالنادي الإسلامي حول المولد النبوي، وما إن سمع صوت المظاهرة التي مرت بالنادي حتى توقف الشيخ عن الحديث وتغيّر لونه، وأوصى الناس أن يذهبوا إلى منازلهم وأن يهدئوا الأعصاب وفي صباح الغد بدأت الاعتقالات العشوائية، أطلق سراح البعض وحوكم البعض الآخر محاكمات تعسفية كعادة الاستعمار".[1]

"لقد بدأ توجيه الشيخ الإبراهيمي يؤثر في الناس. فقد استطاع خلال سنة 1934 أن يقنع الأهالي بعدم حضور اجتماع الشيوعيين الذي كان سيعقد في شهر أبريل، ولوحظ أن الأهالي كانوا غائبين عنه خلافا للعادة، وعندما دُرس الموضوع وجدت السلطات أن الشيخ الإبراهيمي كان قد توجه إلى نادي السعادة عشية ذلك الاجتماع وألقى فيه محاضرة قال فيها أن مبادئ الشيوعية تختلف عن الإسلام ونصح المسلمين بعدم المشاركة في الاجتماع المذكور، وهو اجتماع سياسي بدون شك".[2]

لقد كانت عودة الإبراهيمي إلى تلمسان في خريف 1934م واستئناف نشاطه في التعليم والمحاضرات مصدر قلق للسلطات الاستعمارية عموما، فقد وصلت أصداء ذلك النشاط إلى الولاية العامة بالجزائر فأرسل الوالي العام إلى الوالي بوهران يخبره عن القلق الذي يساوره من جراء الدعاية المضادة لفرنسا بتلمسان والتي يقوم بها الشيخ الإبراهيمي. كما أخبره أن العلماء قد اتخذوا من تلمسان مركزا خاصا لدعايتهم، وأن سياسة العلماء سياسة وطنية بكل وضوح، ولذلك طلب منه اليقظة وإجراء بحث دقيق وسري يحدّد أهداف

(1)- محمد قنانش، «ذكريات وأحداث من الجزائر»، المذكرة رقم 6.

(2) -مجلة الثقافة الجزائرية، العدد 101، أبو القاسم سعد الله ، «الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية» ص 76.

الشيخ الإبراهيمي. وفي هذه المراسلة بين الوالي العام والوالي بوهران خلاصة لنشاط الإبراهيمي في نهاية سنة 1934م .[1]

المؤتمر الخامس لجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين:[2]

عُقد بتلمسان من 6 إلى 15 سبتمبر 1935 المؤتمر الخامس لجمعيّة طلبة شمال إفريقيا المسلمين تحت إشراف الأستاذ الكبير الشّيخ البشير الإبراهيمي الذي خطب خطابا رائعا[3]. وقد حضر المؤتمر وفد من تونس ومن الجزائر حضر مفدي زكريا ومحمد العيد وغيرهم ، ومن المغرب الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني وقد ألقيت في المؤتمر قصيدة للأستاذ علال الفاسي بالنيابة عنه.

وقد كان الافتتاح بقاعة البلدية، وحضر مع من حضر شيخ المدينة فالور "Valeur" المعروف بعدائه للعرب والمسلمين، وقد أخذ الكلمة لتحدي الطلبة والمؤتمر والتاريخ، وقال في حديثه بصلفه المعهود «أن وحدة الشمال الإفريقي لم توجد، وهاهي آثار مدينة المنصورة أمامكم فاسألوها»، ونفث سمومه بكل وقاحة. وكان المترجم القدير علال البلهوان هو الذي ترجم خطابه إلى العربية ثم ردّ عليه بالفرنسية وأفحمه حتى جعله سخرية الحاضرين، وخرج شيخ المدينة مغتاظا، ورفضت السلطات الفرنسية مواصلة أشغاله بقاعة البلدية، ففتح نادي السّعادة أبوابه للمؤتمرين.

---

(1) - مجلة الثقافة الجزائرية، العدد 101، أبو القاسم سعد الله ، «الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية»، ص 81.

(2) -انظر «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 32، طبعة دار الغرب الإسلامي،1997م»، و»ذكريات وأحداث من الجزائر، محمد قنانش، المذكرة رقم 7».

(3) -آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 32، 33، 34، طبعة دار الغرب الإسلامي،1997م.

ومن المواضيع التي طرحت به "التعليم العربي في الشمال الإفريقي" ثم ألقى مفدي زكرياء قصيدة رائعة وكان منها هذا البيت:

إن الجزائر في الغرام وتونس * والمغرب الأقصى خلقن سواء.

وفي المساء ألقى الشيخ البشير الإبراهيمي محاضرة حول التعليم وطلب العلم وأشياء أخرى، ووقف العلاّمة الأستاذ الإبراهيمي وأفاض من مادّته السحريّة مدرارا من الكلمات الخالدة، والحكم النّاضجة، والأفكار الصّائبة بأسلوب فهم كلّ من حضر مغزاه، وذاق كلّ من سمع حلاوة معناه. ثم وأعقبه الأستاذ عثمان الكعاك من تونس حول تاريخ الشمال الإفريقي.

ولم يكتف الإمام الإبراهيمي بالإشراف على المؤتمر، وفتح النّادي لمواصلة أعماله، فتحدّى السلطات الفرنسية واستدعى جمعا من أدباء تلمسان صحبة المؤتمرين إلى حديقته. ولا شكّ -أيضا- في أنّ إشراف الإمام على المؤتمر، ولهجة الخطب التي ألقيت فيه، واللغة التي هيمنت عليه، وإيواء نادي السعادة الموجّه من الإبراهيمي- للمؤتمر، والتوصيات التي خرج بها، وتكريم الإمام الإبراهيمي للمؤتمرين في منزله، كلّ أولئك جعل بعض الفرنسيّين يعتبرون أنّ المؤتمر لم يكن مؤتمر طلاب ولكن كان مؤتمر وطنيّين وإسلاميّين، وهو ما جعل السلطات الفرنسية ترفض عقد المؤتمر السّادس في مدينة فاس لأنّها كانت مستيقنة بأنّ للإمام الإبراهيمي علاقات مع علماء فاس، ممّا يسهّل عليه التّأثير في المؤتمر، وتوجيهه عكس ما تهوى، وتقترح عقده في الرباط تحت إشراف المقيم العام الفرنسي، فرفض المؤتمرون ذلك، وعقدوا مؤتمرهم في مدينة تطوان التي كانت تحت الإدارة الإسبانية.

وفي الأخير أقيم حفل تأبين لأبي القاسم الشابي بالنادي الإسلامي شارك فيه مفدي زكرياء ومحمد العيد وغيرهم من الشعراء،وقد ترك مؤتمر الطلبة بتلمسان أثرا حسنا لا زال في ذاكرة الشعب، فالصفعة التي تلقاها شيخ المدينة

وخروجه من القاعة مدحورا لا تنسى مدى الدهر. وقد كان لجمعية الطلبة نشيد من صنع مفدي زكرياء والأستاذ المنجي سليم وهو كذا:

حَيُوا إِفْرِيقْيَا حَيُّوا إِفْرِيقْيَا *** حَيُّوا إِفْرِيقْيَا يَا عِبَاد
شَمَالُهَا يَبْغِي الاتِّحَاد *** أَشْبَالُهَا تَأْبَى الاضْطِهَاد
الجِهَاد الجِهَاد فِي سَبِيل الاتِّحَاد

زيارة الشيخ ابن باديس لدار الحديث في جويلية1939م:[1]

زار الشيخ ابن باديس تلمسان سنة 1939م وحضر حفل ختم نصف القرآن الكريم بدار الحديث تفسيرا من قبل الشيخ البشير الإبراهيمي، وبعد الانتهاء من الدرس قام الشيخ واقتطف من كلامه كلمة كتاب، وتكلّم عن القراءة والكتابة، وعلّق على قانون منع اللغة العربية 1938، ثم توقّف برهة ورفع يديه إلى السماء، وبدأ يدعو الله سرّا والناس يبكون، وكان المشهد مؤثّرا.

أعضاء المؤتمر الخامس مجتمعين في غليّة تلمسان، ويظهر الشيخ البشير الإبراهيمي في الصورة بتوسط الجمع، وعلى يمينه الشيخ محمد مرزوق.

(1)-شهادة الحاج عبد القادر شيخاوي رحمه الله .

وبعد صلاة العشاء ذهب الوفد إلى نادي السعادة حيث كان أعضاء الجمعية وعلى رأسهم عبد السلام طالب قد حضّروا برقية المساندة لفرنسا ضد النازية فرفض التوقيع عليها وقال: والله لو أعطتني فرنسا بندقيّة، وذهبت بي إلى هناك لأقاتل معها ما أطلقت رصاصة واحدة ضد ألمانيا.

وإذا كانت النفوس كبارًا* تعبت في مرادها الأجسام**

في الليل نام الشيخ ابن باديس بدار الحديث (في الغرفة التي بها مكتب الشيخ الإبراهيمي)، وكُلّف الحاج عبد القادر شيخاوي بحراسته، هذا الأخير اعترف بأن الشيخ لم ينم إلا في ساعة متأخّرة من الليل، ونهض قبل صلاة الفجر كما اعترف أنّ النوم قد غلبه أثناء الليل، لكنّه استيقظ على صوت ينبعث من أعلى السلّم المؤدّي إلى الطابق الثاني حيث الأقسام، وظن بأنه شخص ما يريد مكروها بالشيخ، وإذا به يفاجأ بصوت يقول له: أحسنت! أحسنت! وكان صوت الشيخ ابن باديس الذي كان يتفقّد الأقسام كما يعتقد الحاج عبد القادر شيخاوي.

نفي الشيخ الإبراهيمي:

جاء الأمر باعتقال الشيخ الإبراهيمي يوم 12 أبريل بعد رفض الشيخ الدعاية لفرنسا ضد النازية، وكانت ليلة العاشر من شهر أبريل من سنة 1940 هي الليلة التي أُخذ فيها الشيخ الإبراهيمي للنفي إلى آفلو، وبات معه أقرب الناس إليه، ولم يعرفوا طعم النوم حيث بات ينصحهم ويوصيهم ويحثّهم على مواصلة نشاط الجمعية. وعلى الساعة الرابعة صباحا[1] جاءت سيارة البوليس من نوع "Traction" وحملته إلى مدينة آفلو بالجنوب الوهراني، وكانت هذه المدينة موضعا تنفي فيه فرنسا الأشخاص غير المرغوب

(1)- لقد تعود المستعمر على أخذ المصلحين ليلا بعيدا عن أعين الناس حتى لا تحدث عند أخذه حوادث.

فيهم، وبعد ذلك تعرّض الكثير من أصحابه إلى الضغط من قبل الإدارة الفرنسية، منهم الحاج أحمد رحمون الذي استنطقه أعضاء المخابرات كثيرا لإخبارهم عن تحركات وأعمال الشيخ بتلمسان، فكان دائما يردّ عليهم إن الشيخ كان يقدم على جميع أعماله جهارا، وفي يوم من الأيام قال لهم بعد الضغط الذي تعرّض له: "إن كنتم تريدون أن تلحقوني به فسأكون لكم من الشاكرين" وفي تلك الفترة خلت دار الحديث من روادها إلا القليل منهم، كالحاج أحمد رحمون وبعض الأفراد الذين بقوا ثابتين في مواقعهم.

دستور الجزائر المستقلة:[1]

عندما أُطلق سراح الشيخ البشير الإبراهيمي من المنفى رجع إلى تلمسان في موكب كبير يضم السادة علي التريكي صاحب سيارة الأجرة والحاج عمر حساين والحاج عبد الرحمن القورصو، وهو الوفد الرسمي الذي ذهب لإحضار الشيخ، وفي طريق رجوعهم أمرهم الشيخ بالتوقف، وأخرج بعض الأوراق من جيبه وأحرقها، وكانت تلك الأوراق تحمل (دستور الجزائر المستقلة)[2]. وعندما سُئلَ عن سبب إحراقها قال بأنّه لا جدوى من بقائها معه لأنها ربما سببت لهم المتاعب في الطريق ما دام يحفظها في ذاكرته.

وإن كان هناك مغزى من هذه القصة فهو إيمان الشيخ الإبراهيمي وسائر إخوانه المصلحين باستقلال الجزائر، في الوقت الذي كان فيه الكثير من المثقفين لا يؤمنون بذلك.

مواصلة المشوار الإصلاحي:

بعد ما رجع الشيخ الإبراهيمي إلى تلمسان واصل مباشرة درس الحديث في الموطأ الذي كان قد بدأه بعد صلاة المغرب ولم ينهه يوم نفيه. لقد بقي الشيخ

(1) - شهادة الحاج منير شلبي وهو رجل إصلاحي ومن معلّمي دار الحديث .

(2) -مستنبط من التشريع الإسلامي.

البشير الإبراهيمي في تلمسان بعد رجوعه من المنفى من سنة 1943م إلى سنة 1946م ، ورجع إلى نشاطه العادي في المسجد والمدرسة التي أعيد افتتاحها في سنة 1943م .

خطبة الوداع:

في سنة 1946 م غادر الشيخ البشير الإبراهيمي تلمسان بصفة نهائية، لأن إدارة الجمعية أصبحت تتطلّب وجوده بالعاصمة بعد موت الشيخ مبارك الميلي. خطب الشيخ البشير الإبراهيمي في الناس في آخر جمعة له بدار الحديث خطبة مودع، ومما جاء فيها طلب السماح من الناس الذين أساء إليهم، وهو بدوره سامح من أساء إليه وضربه وشتمه وبزق في وجهه وقاتله أوحاول إزهاق دمه... ، وتأثّر الجميع بكلامه وبكوا.

زهد الشيخ البشير الإبراهيمي:

لما غادر الشيخ البشير الإبراهيمي تلمسان في سنة 1946 م حزّ في نفوس المصلحين من أهل هذا البلد أن يُستأجر له بيت من يهودي، فقاموا بجمع مبلغ مالي هام، وبعثوا له به مع وفد من أجل أن تشترى له دار بالعاصمة، لكن الشيخ أبى إلا أن يعطي هذا المبلغ للشيخ خير الدين أمين مال الجمعية آنذاك، وأمره أن ينفق منه عند الحاجة كلما قلت الميزانية [1].

وصدق فيه قول الشاعر العربي:

يجود علينا الخيّرون بمالهم*** ونحن بمال الخيّرين نجود

برامج الحركة الإصلاحية بتلمسان وعلاقاتها مع غيرها قبل مغادرته تلمسان إلى منفاه في مدينة آفلو:

وضع الشيخ البشير الإبراهيمي ورجال الإصلاح بتلمسان برنامجا اجتماعيا واقتصاديا للمحافظة على التقاليد الحضارية، والاعتماد على الذات في تدبير شؤون الحياة.

(1) -شهادة الشيخ بن يونس آيت سالم عن الحاج عبد الرحمن القورصو.

من الناحية الاجتماعية:

الدعوة إلى الزواج المبكّر وتيسير المهور:

ومن هذا المنطلق حرصت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتلمسان بزعامة الشيخ البشير الإبراهيمي على الزواج المبكر، وقد كان العائق الأكبر لهذه الظاهرة هو غلاء المهور، فكان الشيخ يحثّ الناس في الكثير من دروسه ومحاضراته على تيسير الصداق، وينبّه الأولياء إلى عدم المغالاة في المهور، كما كان دائما يدعو الشباب الأغنياء إلى الزواج بالفتيات الفقيرات.

وفي إحدى المرات عندما أحسّ الشيخ أنه أثّر في السامعين قال لهم: -وكان المكان غاصا بالحضور-: "الآن ارفعوا أيديكم، وعاهدوني على أن هذه الظاهرة لا تبقى في مجتمعكم". فرفع الجميع أيديهم إلا واحدا، فسأله الشيخ عن السبب فقال له: يا شيخ نحن الرجال ليست لنا كلمة الفصل في هذا الموضوع، فالمسألة عند النساء، فإن أحببت أحضرناهن لك فأقنعهن بذلك، وأمرهن أن يعاهدنك عليه.

وممّا يذكر في هذا المقام أيضا أن أحد أغنياء تلمسان[1] في ذلك الوقت أقنع زوجته بهذه المسألة، وزوّج ابنته بصداق رمزي حتى يكون قدوة لغيره، فبدأ النساء يهنّئن زوجته على هذه السنة الحميدة، ويباركن لها، وكانت هي أيضا تبادلهن الشكر والثناء، وفي نهاية المطاف قالت لهن باللهجة الدارجة: "أَحْنَا اعْمَلْنَا هَذَا، ولكن إِذَا خَلّوْنَا المْزَالِيطْ"[2] [3].

ومن الناحية العملية، فكّر الشيخ محمد مرزوق الذي كان مكلّفا باللجنة الاجتماعية بمعيّة الشيخ البشير الإبراهيمي في إقامة زواج يكون قدوة للناس في تيسير المهور، يكون صداقه رمزيا، فتمّ اختيار بنت أحد المصلحين اسمه

(1) - لعلّه من عائلة محداد.

(2)- المزاليط باللهجة الدارجة هم الفقراء، فالغالب هم الذين يغالون في المهور.

(3) - رواية الشيخ بن يونس آيت سالم.)

بوحسّون، هذا الأخير قبل تزويج ابنته بخاتم من ذهب، وشاب من اقتراح الشيخ محمد مرزوق، اسمه إبراهيم بن ديمراد، لكن هذا الزواج لم يتم لأنّ أمّ إبراهيم رفضت ذلك، فقد كانت تنوي تزويج ابنها من بنت خالته.[1]

وهنا تبيّن لرجال الإصلاح بتلمسان أنهم قصّروا في الاهتمام بموضوع المرأة وأدركوا أنّها جسر مهمّ في عملية الإصلاح الديني وللاجتماعي، لا بدّ من المرور عليه.

إصلاح ذات البين:

لقد عمل المصلحون في تلمسان على معالجة ظاهرة اجتماعية خطيرة، كانت موجودة بهذه المدينة، وهي ظاهرة (الحضر والكراغلة) التي تعتمد على العنصرية بين سكّان تلمسان الأصليين (الحضر)، المنحدرين من البربر والعرب والزيانيين، وبين (الكراغلة)، وهم المنحدرون من أب تركي وأم تلمسانية. وكان بينهم خصام، وحقد وكراهية، وعدم تزاوج، وقد برزت هذه الظاهرة بحدّة مع بداية العشرينيات، ووصلت إلى حد الشجار والتقاتل. وقد غذّاها الاستعمار من قبل في إطار سياسة فرّق تسد.

لقد أُسّس نادي السّعادة في سنة 1930، وسمّي بهذا الاسم لأنّه كان ثمرة التّوفيق بين نادي الشبيبة الذي يمثّل الكراغلة، والنادي الإسلامي الذي يمثّل الحضر، وكان لظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتلمسان عموما، ولزيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1931 خصوصا الأثر الأكبر في التوفيق بينهم.

التكافل الاجتماعي:

من الناحية الاجتماعية تمّ تأسيس لجنة هدفها تخفيف الأعباء على الفقراء والمساكين، ومساعدتهم بالأموال، والمواد الغذائية الأساسية في الأعياد والمناسبات العائلية.

(1) - شهادة الحاج خالد مرزوق.

من الناحية الاقتصادية:

كانت تلمسان في ذلك الوقت تعجّ بالصناعات التقليدية، فكان بها (السرّاجون والبلاغجية والدرّازون وأصحاب الزربية) وغيرهم، وكان هؤلاء يمثّلون الطبقة الفقيرة من الناس. فعملت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على تحفيزهم من أجل إنشاء تعاونيات استهلاكية للخروج من هذا الفقر، ولعلّ أهم التعاونيات التي نجحت بتلمسان هي تعاونية الدرّازين[1] ، ومصنع النجارة الذي اشترك فيه عبد الرحمن القورصووقازي محمد المدعو(cousin)، وإقامة تعاونية استهلاكية للمواد الغذائية العامة، ولم يطل نشاطها بسبب عرقلة اليهود لها، وكان بها محمد بن شوك (لزعر)، ومحمد بابا أحمد (معلّم).

من الناحية الثقافية:

لقد اعتمد الجانب الثقافي لدى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتلمسان على نشر الوعي الديني والثقافي لدى الشعب، ومحاربة الجهل والخرافات عن طريق تنوير العقول بالدعوة إلى العلم، وبناء المدارس والمعاهد وإقامة المسارح، وقد تحدّثنا عن هذا الأمر في الفصل الخاص بدار الحديث والتربية والتعليم بها، وكذا المدارس الأخرى في مختلف أنحاء الولاية.

ومن الناحية العملية ألزمت جمعية العلماء بتلمسان رجالها التحدّث باللغة العربية بعدما منعت فرنسا استعمالها في سنة 1938، وحثّتهم على ترك الحديث باللغة الفرنسية إلا عند الضرورة، وعند العجز عن ذلك يمكن استعمال اللهجة الدارجة عوض الفرنسية، وكل من يحدّث بكلمة بالفرنسية يدفع غرامة مالية قدرها (دورو)، أو مبلغ يتّفق عليه.[2]

---

(1) -الدرازون هم صانعوا (الحَمْبَلْ).

(2) -شهادة خالد مرزوق.

تأسيس مطبعة ابن خلدون:

لقد اقترحت الفكرة من قبل شاب تابع للحركة الإصلاحية اسمه الجيلالي شلبي، كان محترفا في ميدان الطباعة، وأرشدهم إلى المحلات التي تبيع آلات الطباعة في فرنسا، وتطوّع للعمل فيها وإصلاحها.

قُبلت الفكرة وبدأ المشروع يعمل وسمّيت هذه المطبعة باسم "ابن خلدون"، لكن الشاب الجيلالي شلبي استدعي للخدمة العسكرية مع أوائل الحرب العالمية الثانية، فقام مقامه مولاي الحسن البغدادي الذي كانت لديه مطبعة صغيرة، فوظّف معه عدة عمال، منهم الغوتي خليل الذي علّمه جيّدا، وعرّفه بفنون الطباعة من بدايتها، وتولّى الشيخ البشير الإبراهيمي عملية تصحيح الأخطاء في الطباعة بالعربية، والأستاذ محمد بخّوشة بالفرنسية، ثم توسّع العمل واستدعي عمّال آخرون للعمل بها، فقام الأستاذ محمد بخّوشة بطبع كتاب "الكائن المحبوب" باللغة العربية، وكتاب حديقة الأزهار "Le jardin des roses" باللغة الفرنسية، كما طُبع في هذه المطبعة كتاب في الشعر لابن مسايب شيخ الحوزي في تلمسان، وطبع الأستاذ عبد الوهاب بن منصور مجلة علمية بالعربية عنوانها: "القنديل".

محاربة أهل الإصلاح للبدع والشعوذة والخرافات وتقديم البديل الإصلاحي:

في زمن الأربعينيات كان أهل البدع والخرافات من أصحاب الطرق المنحرفة يجتمعون في عين مازوتة، ويقيمون مهرجانات في أيام الأعياد، والمولد النبوي الشريف، تحضرها عدّة فرق، ويقيمون الفلكلور بالطبل والمزامير وبعض المدائح الدينية، وكانت تحدث فيها بعض المظاهر الغريبة مثل أكل جلود الأحذية والشوك الهندي، والشعوذة، وغيرها.

وكثيرا ما كان المستشرق ألفراد بال (Alfred Bel) يحضر هذه المهرجانات ويشجّعها، وقد قام بتصوّير أحد مشاهدها كلّه، وبعث بالشريط إلى فرنسا وبعض الدول الأخرى، وحتى إلى الأمم المتحدة بعد تأسيسها، وزعم لهم بأن الجزائريين أناس متوحشون، وأنهم لا يستطيعون العيش في حرّية واستقلال وأن فرنسا تقوم بتأديبهم وتحضيرهم، وإخراجهم من هذه الفوضوية والهمجية المتوحشة.

لقد حارب أهل الإصلاح وعلى رأسهم العلامة الإمام الإبراهيمي هذه الظاهرة بإعطاء البديل في هذه المناسبات، فقد كانوا يجمعون أطفالهم وشبابهم في دار الحديث ويذهبون بهم كل يوم على الساعة العاشرة صباحا إلى (قْصَرْ الشَّعْرَة) بجهة الكيفان حاليا، ويأخذون معم بعض المأكولات الخفيفة ويضَلّون هناك في نزهة، ويقيمون بعض الألعاب الرياضية البهلوانية والمصارعة الخ ... ويرجعون عند صلاة العصر، ويدخلون دار الحديث، وهم ينشدون نشيد "شعب الجزائر مسلم" [1].

وللإشارة فقد كان أهل الإصلاح بتلمسان يقومون بكثير من الجولات ويقصدون الغابة في الكثير منها، وبالأخص مكان به عين ماء تدعى عين "أبو المهاجر دينار" التي تقع بالقرب من قرية "عطّار" في مرتفعات مدينة تلمسان وأبو المهاجر دينار هو أحد الفاتحين المسلمين.

واختيار هذا المكان له دلالاته الكبيرة، فقد كانت جمعية العلماء تهدف إلى ربط هذه المناطق بالفتح الإسلامي.

(1) - شهادة الحاج محمد شيعلي.

هؤلاء جماعة من أبناء وشباب الإصلاح، وقد تجمّعوا في (قْصَرْ الشعرة) في جولة، بعيدا عن مهرجانات أهل البدع ، يظهر على الصورة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي جالسا يتوسط الجماعة، وقد وضع عصاه أمامه على الأرض، وبجانبه على اليسار مولاي أحمد رحمون، ويُرى على الصورة الشيخ محمد شيعلي واقفا وراء مولاي أحمد رحمون مباشرة.

الأقلية اليهودية في تلمسان وعلاقتها مع رجال الحركة الإصلاحية: [1]

كان هناك نوع من العلاقات بين المسلمين واليهود بتلمسان في الفترة ما بين 1936 م و1937م ، رغم الاختلافات الجوهرية بين الجماعتين، خصوصا بين ممثّلي الجالية اليهودية بالبلدية وأعيان المسلمين في المدينة، مثل الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ محمد مرزوق، وغيرهما...

(1) - شهادة الحاج خالد مرزوق.

لقد كانت الجالية اليهودية متغلغلة في المجتمع التلمساني، وقوية، وكان لها تأثيرها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وفي الحياة السياسية أيضا. وكانت تقبض العصا من الوسط، وتظهر الودّ لكل الفئات، ولا تعادي أحدا، فقد كانت على علاقة جيّدة مع الإدارة الاستعمارية، وفي الوقت نفسه تحاول كسب الجمعية إلى جانبها.

وكان في البلدية المسمّى نسّيم بن زاكن، المستشار البلدي الممثّل للجالية اليهودية، المعروف بتفانيه في خدمة مصلحة قضيته، وقد أقرض الشيخ البشير الإبراهيمي مالاً أثناء بناء دار الحديث.

ومن جانب آخر فإن حركة الإصلاح بتلمسان لم تكن منغلقة على نفسها والشيخ البشير الإبراهيمي كان له من العلم بحيث يستطيع مواجهة أيّ كان.

لقد توطدت هذه العلاقة على وجه الخصوص بين الشيخ الإبراهيمي والربي شاربيت، وأصبح يلازمه كثيرا ليتعرف على الوجه الحقيقي لشخصيته وعبقريته الدينية والثقافية، واستغل هذه العلاقة للاستفادة منه من الناحية العلمية.

وكان الربي اليهودي كثيرا ما يوصي أتباعه بحسن معاملة الشيخ الإبراهيمي واستجاب الكثير منهم لهذه النصيحة، وعلى رأسهم المدعو بن نسّيم زاكن الذي كان نائبا لرئيس البلدية مكلفا بشؤون الجالية اليهودية، وقد أقرض هذا الأخير للشيخ الإبراهيمي مالا أثناء عملية بناء دار الحديث.

رجال الإصلاح بالنادي اليهودي "Cercle des loisirs" [1]:

بدعوة من كبار اليهود زار وفد من دار الحديث عام 1937 النادي اليهودي

(1) - يقع النّادي اليهودي في آخر شارع الاستقلال «Rue de France» آنذاك، بالقرب من نقابة النشاط السيّاحي «SIT»، وهو الآن على ما أظنّ أحد المقاهي الأربعة الموجودة في هذا الشّارع.

المعروف باسم Cercle des loisirs""، واستقبل أحسن استقبال، وقام المحامي غُزّي ورحّب بالوفد، وألقى كلمة بالفرنسية ركّز فيها على العلاقات المتينة بين اليهود والمسلمين في تلمسان، وعلى المساواة بينهم، وفي الأخير دعا الشيخ البشير الإبراهيمي ليقول كلمات، فقام الشيخ وتكلّم بالعربية، وبدأ بالشّكر الجزيل على الدعوة وعلى الاستقبال المتميّز، وقال: "أسمح لنفسي بالكلام لألفت انتباه السيّد غُزّي أنّه فعلا الصداقة بين جماعتينا موجودة ولكن المساواة بيننا غير موجودة، لا في الحقوق ولا في الواجبات، فهذا خلط، أنتم فرنسيّون ونحن أهالي "Indigènes"، فأنا لا أرى مساواة بيننا، أنتم معشر اليهود الآن في القمّة ونحن في القاع، ولكي تكون هناك مساواة بيننا فإمّا أن تعطونا أيديكم لكي نصعد إليكم أو انزلوا أنتم إلينا..." [1]

جماعة المصلحين في النادي اليهودي «Cercle des loisirs» في سنة 1937م، ويظهر الشيخ البشير الإبراهيمي الثاني على اليمين جالسا وقد أسند ظهره إلى الحائط.

(1) - شهادة السيّد عبد الرّحمن القورصو رحمه الله .

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: "أما بخصوص المحاضرة التي ألقاها الشيخ الإبراهيمي في النادي اليهودي"Cercle des loisirs" فنعرف من الوثائق أنّها كانت مناسبة لمعالجة عدة قضايا، منها العلاقات بين المسلمين واليهود تاريخا وحاضرا، ومنها الاستنجاد بتأييد الزعماء اليهود لقضايا المسلمين، ومنها الدعوة إلى الوفاق خصوصا بعد أحداث قسنطينة 1934، أو غيرها. ثم إنّنا لا ننسى أنّ الفترة تمثل عهد الجبهة الشعبية الذي كثر فيه الحديث عن التآخي بين جميع الأطراف تقريبا"[1] .

اليهود في زيارة لدار الحديث: [2]

بعد تدشين مدرسة دار الحديث قدّمت اللجنة الدينية دعوة لكبار اليهود بتلمسان وممثّليهم لزيارتها، وكان على رأس الوفد ربّي يهودي مُعرّب، أتوا به من وجدة خصّيصا لهذه الزّيارة، والمحامي غزّي، والمستشار نسّيم بن زاكن والربّي شاربيت، وآخرون، وقُدّمت لهم الحلويات والشاي بالمناسبة. فتأثّر الوفد اليهودي بهذه الزيارة، وأُعجب بالبناء، وقدّم تهانيه للشيخ البشير الإبراهيمي ولأعضاء اللجنة الدينية على هذا العمل الجليل الذي لم يتصوّروه يوما ولم يكن منتظرا لديهم.

وأثناء هذه الزيارة قام الربّي اليهودي المعرّب وقال كلمة جاء فيها: "بسم الله العظيم الكريم، أشكر الشعبة المديرة لدار الحديث على هذه الدعوة التي وُجّهت لنا، وعلى الاستقبال الحار، وأُهنّئكم على هذا الإنجاز العظيم الذي قمتم به وهو بيت من بيوت الله، وعلى هذا التنظيم والتخطيط العبقري، ففي الطابق الأرضي قاعة للصلاة، وهي للعلاقة مع الله، وفي الطابق الأوّل قاعة للمحاضرات

(1) - مجلة الثقافة الجزائرية، العدد 101، أبو القاسم سعد الله ،»الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية»، ص88.

(2) - شهدة الحاج عبد الرحمن القورصو.

والثقافة، والطابق الثاني للتعليم والمعرفة، وأتمنّى لكم النجاح في هذه المهمة وأدعو الله أن يحقّق آمالكم...آمين".[1]

مساندة الحركة الإصلاحية للحركة الكشفية[2] :

انعقد لأول مرة بتلمسان المخيم الوطني لرؤساء وعمداء الحركة الكشفية بهضبة لالاّ ستّي في صائفة جويلية 1944، وضم أكثر من 450 كشاف. وقد ساهمت في تنظيمه المجموعة الكشفية لمدينة تلمسان تحت رئاسة المحافظ الجهوي للجهة الوهرانية السيد الغوتي شريف، كما ساهم في هذا التجمع أعضاء نادي السعادة وكذا بعض الأعضاء من دار الحديث نذكر منهم على وجه الخصوص السيد المحترم الذي أبلى البلاء الحسن في التهيئة لهذا المخيم الحاج عبد الرحمن القورصو رحمه الله.

أثناء الإعداد لهذا التجمع زاروفد من رجال الإصلاح مكان المخيم يتقدمهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وقدموا كبشا مساهمة منهم وتضامنا مع إخوانهم في الحركة الكشفية. وأثناء هذه الزيارة لاحظ الشيخ البشير الإبراهيمي وجود ثلاث خيم فقط لديهم، فنادى على السيد الغوتي شريف قائلا له: "هذا كل ما لديكم من خيم لاستقبال الضيوف؟"، فرد عليه قائلا: "لا نملك سوى هذه الخيم الثلاث!". فهمس الشيخ الإبراهيمي في أُذن السيد عبد الرحمن القورصو أن يتدارك الأمر، ويوفر كل ما يلزم من أجهزة لإيواء الضيوف.

وفي اليوم الموالي اكترى السيد عبد الرحمن القورصو شاحنة كبيرة وتوجه نحو مدينة وهران إلى المؤسسة المختصة في بيع وكراء العتاد والأجهزة الخاصة بالمخيمات "Vidal et Manégat".

---

(1) - قال الكلمة بالعربية.

(2) - شهادة خالد مرزوق.

لقد كان الطلب كبيرا بحيث جعل البائع يندهش، ويستفسر عن السبب من أجل التأكد من صحة هذه الصفقة، فأكّد السيد عبد الرحمن القورصو تمسكه بالطلب، ومسؤوليته نحو هذه الأجهزة. وبعد أخذ ورد بينهما قُبل طلبه ثلاثة شروط منها دفع200000 فرنك نقدًا وفي الحال، واحترام موعد إرجاع الأجهزة مع دفع غرامة مالية في حالة التأخير، والمراقبة الصارمة لهذه الأجهزة عند إرجاعها مع دفع مصاريف الترقيعات إن وجدت.

قَبِل السيد عبد الرحمن القورصو هذه الشروط القاسية، ووقع شيكا بالمبلغ المطلوب لكراء تلك الأجهزة، وحملها على الشاحنة ورجع إلى مدينة تلمسان التي استقبلته بحفاوة العائد المنتصر، ونُصبت الخِيم والأجهزة وجرى المهرجان الكشفي على أحسن حال كما كان منتظرا.

الشيوخ الذين بقوا للتدريس بمسجد دار الحديث والمسجد الأعظم بعد رحيل الشيخ الإبراهيمي:

من بين الشيوخ الذين بقوا بتلمسان بعد رحيل الشيخ الإبراهيمي نذكر الشيخ العباس بن الحسين والشيخ العربي التبسي والشيخ السعيد الزمّوشي والشيخ السعيد الصالحي، بقوا حتى سنة 1956م حين أغلقت المدرسة، لقد اقتحم هؤلاء العلماء المسجد الكبير لإقامة الدروس رغم معارضة المفتي والإدارة الاستعمارية، وكان أوّلهم الشيخ العبّاس بن الشيخ الحسين الذي خلف الشيخ عبد الوهّاب بن منصور عندما عُيّن مديرا بمدرسة ندرومة وقد كان جهوري الصوت، مؤثّرا في السامعين، وممّا يذكر أن الشيخ السعيد الزموشي أقام صلاة العيد سنة 1955م بساحة مقبرة الشيخ السنوسي، فصعد المنبر وبيده السيف بدل العصا إشارة ببداية الثورة المسلّحة.

من ثمرات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتلمسان:

دار الحديث قلعة الإصلاح بتلمسان 1937 م – 1956م :

في يوم 17 فبراير 1936 انطلقت لجنة تشييد وبناء مدرسة دار الحديث في أعمالها تحت إشراف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، فشارك أهالي تلمسان مساهمة مشرفة في هذا البناء العظيم والرمز الكبير، فمنهم من ضحّى بماله وغيره بقوته وعرقه وبعضهم بدعائه، وكل حسب طاقته.

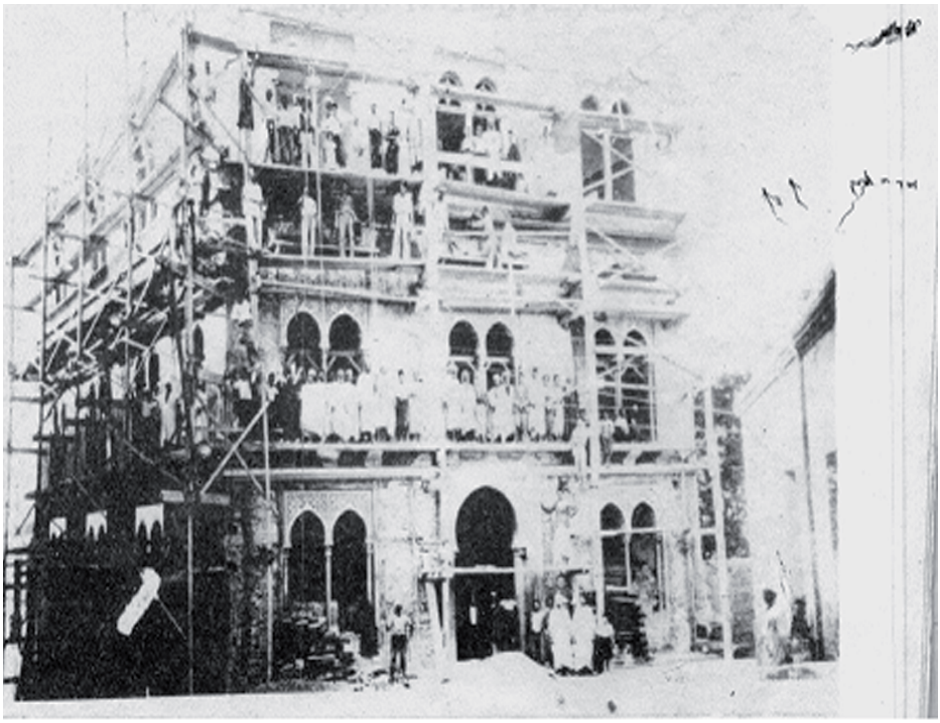

الصورة رقم 01: مدرسة دار الحديث أثناء البناء سنة 1936

لقد كان لهذه المدرسة طابعها الحضاري الإسلامي والعربي، وكانت بحق مفخرة الجزائر، وكان لها الشرف أن تكون أوّل مدرسة تبنيها جمعية العلماء من الأساس إلى الهرم بطابع وشكل مميزين على نمط الهندسة العربية الإسلامية

في الأندلس، والفضل في ذلك يعود للمهندس عبد الرحمن بوشامة رحمه الله.

وهي تتكوّن من طابق أرضي فيه مسجد للصّلاة، وقاعة للوضوء في الطابق السفلي، وقاعة للمحاضرات وخشبة للمسرح ومكتب إدارة المدرسة في الطابق الأول، أما الطابق الثاني فيحتوي على خمسة أقسام للدّراسة.

إن بناء هذه المدرسة كان بمثابة تحدّ من قبل سكان تلمسان ورجال جمعية العلماء للإدارة الفرنسية، وإثباتا لفرنسا أن الأمة الجزائرية قادرة على النهوض وتعليم أبنائها وبناء حضارتها ومستقبلها بنفسها دون وصاية من أي كان.

لقد كان يوم 27 سبتمبر 1937 يوما مشهودا في تاريخ الجزائر عامة وتلمسان خاصّة، حيث توافد الناس من كامل القطر الجزائري لحضور افتتاح دار الحديث، وكان عددهم ثلاثة آلاف شخص منهم سبع مائة ضيف، والبقيّة من أهالي تلمسان.

وخرج يومها أهالي المدينة كبارا وصغارا، رجالا ونساء، مواطنين وبعض المستعمرين للقاء زعيم النهضة الإصلاحية ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، الشيخ عبد الحميد بن باديس.

وصل الشيخ عبد الحميد بن باديس على الساعة العاشرة والنصف إلى محطّة القطار، وكان مرفوقا بوفد رسميّ من العلماء، واستقبل بحفاوة كبيرة تليق بمقامه من قبل الشيخ البشير الإبراهيمي ورفقائه من رجال الإصلاح بتلمسان والمستشارين البلديّين، ومشى أعضاء الوفد راجلين متتبّعين الطّريق الذي رسم لهم وهو (محطّة القطار / باب سيدي بومدين / المَدْرَسْ / الشّارع الوطني، المعروف بشارع العقيد لطفي الآن، حتّى مدرسة دار الحديث).

افتتاح مدرسة دار الحديث يوم 27 /09 /1937. يظهر على الصورة الشيخ ابن باديس يتوسط الجمع وعلى يمينه الشيخ البشير الإبراهيمي وعلى يساره الشيخ إبراهيم الكتاني من المغرب الشقيق ومجموعة من شيوخ الجمعية أمثال الشيخ العربي التبسي والشيخ مبارك الميلي والشيخ محمد مرزوق والمحامي عبد السلام طالب وغيرهم.

واصطفّ على طول الطريق شبّان ينتمون إلى الحركة الوطنيّة (من حزب الشّعب) وكوّنوا جدارا (سلسلة) عن يمين الشارع و يساره ، متماسكي الأيدي وعلى ذراع كل منهم منديل أخضر(Brassard) لتسهيل عملية المرور للشيوخ فأعجب الوفد بهؤلاء الشباب ونظامهم، وكان الكل يردّد: **"سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر"**، وزغاريد النساء مدوّية من الشرفات حتّى الوصول إلى باب المدرسة.

وقف الشيخ البشير الإبراهيمي بباب المدرسة يخاطب الرئيس ابن باديس - وهو يناوله المفتاح - بهذه الكلمات البليغة: "أخي الأستاذ الرئيس: لو علمت في القطر الجزائري بل في العالم الإسلامي رجلا له يد على العلم مثل يدكم، وفضل على الناشئة مثل فضلكم لآثرته دونكم بفتح هذه المدرسة، ولكني لم أجد. فباسم تلمسان وباسم الجمعية الدينية بالخصوص أناولكم المفتاح لتفتحوها، فهل لهذه المدرسة أن تتشرّف بذلك؟" وتناول الأستاذ الرئيس المفتاح وقال: **"بسم الله الرّحمن الرّحيم ثمّ على إسم العروبة والعلم والفضيلة أفتح مدرسة دار الحديث، ربّنا أنزلنا مُنزلا مباركا وأنت خير المنزلين، ربّنا أدخلنا مُدخل صدق وأخرجنا مُخرج صدق، واجعل لنا من لدنك سلطانا نصيرا. جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا"**. ثمّ فتح الباب ودخل، ودخل خلفه العلماء والضيوف، وبقيت جموع غفيرة من أهالي تلمسان لم تسعهم البناية، وآثروا ضيوفهم عليهم.

بقيت هذه الجموع تصيح خارج المدرسة: ابن باديس! ابن باديس! نريد أن نرى ونسمع ابن باديس ! فأطل عليهم هو والإبراهيمي والعلماء من الشرفة في الطابق الأول، وخاطبهم قائلا: "يا أبناء تلمسان، يا أبناء الجزائر. إن العروبة من عهد تُبّع إلى اليوم تحييكم. وإن الإسلام من يوم محمد صلّى الله عليه وسلم إلى اليوم يحييكم. وإن أجيال الجزائر من هذا اليوم إلى يوم القيامة تشكركم وتثني عليكم وتذكر صنيعكم بالجميل. يا أبناء تلمسان كانت عندكم أمانة من تاريخنا المجيد فأديتموها فنعم الأمناء أنتم فجزاكم الله جزاء الأمناء والسلام عليكم ورحمة الله" . ثمّ عاد العلماء إلى المدرسة، وفي قاعة المحاضرات اعتلى ابن باديس وصحبه المنصّة وتكلم الشيخ الإبراهيمي فقال: "الفضل في إنشاء هذه المدرسة لا يرجع لأحد غير جمعية العلماء. فكل فضل لهذا العاجز الضعيف هو قطرة من بحر فضل جمعية العلماء" ثمّ أخبر الشيخ الإبراهيمي الحاضرين بأن الرئيس ابن باديس سيفتتح الكلام في دار الحديث بدرس قيم يلقيه عليهم الآن في الحديث النبوي الشريف.

وافتتح ابن باديس الدرس بحمد الله والصلاة على نبيه صلّى الله عليه وسلم. ثمّ روى حديثا بالسند المتصل بالبخاري ومسلم، وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم:

"مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها النّاس، فشربوا وسقوا وزرعوا " أوورعوا "، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"، متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري. وأفاض في شرحه بطريقته التي اختصّ بها وعرف بها، وأثناء كلامه عن قوله صلّى الله عليه وسلم: " فعلِم وعلَّم" أخرج من جيبه خمس مائة فرنك إعانة رمزية منه للمدرسة. وبعد انتهائه من الدرس تبارى الناس في البذل والتبرع بما لديهم في سخاء وكرم نادرين، كما شارك النساء بعد ذلك بتقديم جواهرنّ وحليهنّ".(1)

الشيخ الرئيس عبد الحميد بن باديس يتوسط الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ إبراهيم الكتاني من المغرب الشقيق أمام باب المدرسة.

(1) - عن محاضرة الشيخ محمد الصالح رمضان في الذكرى الخمسين لافتتاح دار الحديث، وكان عنوانها «مدرسة دار الحديث بتلمسان، نظرة عامة حول تدشينها ومكانتها بين المدارس».

إغلاق دار الحديث:

بعد ثلاثة أشهر من افتتاحها تمّ إغلاق مدرسة دار الحديث في يوم 31 ديسمبر 1937م، على الساعة الخامسة صباحا بالقرار المعروف «Arrété Gubernatorial» حسب جريدة «L écho D ' Oran»، بحجّة أنّها لم تكن تحمل رخصة التدريس، وللإشارة فإنّ شعبة الجمعية قد طلبت الرخصة من قبل ولكن الإدارة الفرنسية رفضت إعطاءها إيّاها، وفي يوم 25 ماي 1956م حوّلت الإدارة الفرنسية دار الحديث إلى ثكنة عسكرية بأمر من الوالي العام بوهران كما أمرت بحجز كل ممتلكات الجمعية، وأُلقي القبض علي رجالها، وللإشارة فقد زفّت دار الحديث إلى الشهادة الكثير من أبنائها أمثال العقيد لطفي ومليحة حميدو وغيرهم.

رسالة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الثقافية والتربوية بدار الحديث

اعتمدت الجمعية في رسالتها التربوية والثقافية على التعليم، فبعد افتتاحها مباشرة بدأت الدراسة بها ودامت مدّة ثلاثة أشهر ثمّ أُغلقت من قبل الاستعمار الفرنسي، وقد أطّرها في البداية عدّة مدرّسين أبرزهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والشيخ محمد مرزوق والشيخ مولاي الحسن البغدادي القادري والشيخ الهادي السنوسي والأستاذ محمد بابا أحمد. وكان بها عدّة أقسام، قسم متفوّق يدرّسه الشيخ الإبراهيمي، وقد خصّص للذين كانوا يدرسون بمدرسة دريبة زرار، والأقسام الأخرى يدرسها الأستاذ محمد بابا أحمد، والشيخ الهادي السنوسي وقد خصّصا للمبتدئين.

كان بها أفواج تدرس بالنهار، للذين رفض آباؤهم تدريسهم في المدارس الفرنسية، وأفواج بالمساء للذين يدرسون بالمدارس الفرنسية، وفوج ليلي به قسمان للكبار والعمال.

ثمّ أعيد فتح المدرسة سنة 1943 بعد غلق دام ست سنوات، بعد رجوع الشيخ الإبراهيمي من منفاه بآفلو ومجموعة من المصلحين المعتقلين بجنيّن بورزق، وأصبح بها ستّة أقسام يدرسون بالتناوب من قبل الأستاذ محمد ملوكة والأستاذ عبد الله بوعنان والأستاذ المختار الصبّان، كما فتح بها قسم خاص ذو مستوى عال يدرسه الشيخ الإبراهيمي.

أما المواد المدرّسة فكانت كالتالي: تفسير القرآن الكريم، الحديث الشريف اللغة العربية، التاريخ والجغرافيا، الفقه، الشعر، البيان والعروض.

يقول الشيخ البشير الإبراهيمي في معرض حديثه عن إنشاء دار الحديث وهو يعرّف بنفسه بمناسبة تعيينه عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة: «... وتولّيت بنفسي تعليم الطلبة الكبار من الوافدين وأهل البلد، فكنت ألقي عشرة دروس في اليوم، أبدؤها بدرس في الحديث بعد صلاة الصبح، وأختمها بدرس في التفسير بين المغرب والعشاء، وبعد صلاة العتمة أنصرف إلى إحدى النوادي فألقي محاضرة في التاريخ الإسلامي، فألقيت في الحقبة الموالية لظهور الإسلام من العصر الجاهلي إلى مبدأ الخلافة العبّاسية بضع مئات من المحاضرا ت». [1]

نشاط تلامذة دار الحديث:

كان تلامذة دار الحديث يقدمون أنشطة ثقافية عامة بمناسبة الأعياد كالمولد النبوي الشريف ومناسبات آخر السنة الدراسية وذكرى يوم العلم مثل التمثيليات التي تجسّد حياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ورسالته الشاملة، ويقرؤون الشعر العربي، وينشدون الأناشيد الدينية والوطنية.

في آخر الأربعينيات أخذ معلّمون آخرون مكانهم بالمدرسة بسبب ازدياد عدد الطلبة، وهم: عبد الوهّاب بن منصور، وأحمد الشاوي بودغن، ويحيى لشقر

(1) - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، كلمة ألقاها بمناسبة تعيينه عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

والجيلالي حجّاج ومحمد بن يلّس، تحت إشراف الشيخ محمد الصالح رمضان الذي تولى التفتيش العام لجميع المدارس.

يقول الشيخ محمد الصالح رمضان: «وقد شرفني الله بإدارة شؤون دار الحديث عدة سنوات متتالية من 1946م إلى 1953م، حيث توليت التفتيش العام لمدارس الجمعية، وإني لسعيد بما قدمت لدار الحديث والتفتيش ولجنة التعليم من جهد احتسبه لله ولوطني ولغتي وديني» .[1]

ولمّا ضاقت المدرسة بهم ذهب بعضهم للدّراسة في دار مولاي عبد القادر الجيلالي، وكانت عبارة عن زاوية فارغة ومعطلة آنذاك، وذهب للتّدريس بها كل من الشيخ عبد الوهّاب بن منصور والشيخ محمّد شيعلي.

مكانة وقيمة دار الحديث [2]:

هذه إحصائية إجمالية لأوّل شهادة رسمية تمنحها جمعية العلماء لخرّيجي مدارسها:

- الناجحون من مدارس عمالة قسنطينة 52.
- الناجحون من مدارس عمالة وهران 51.
- الناجحون من مدارس عمالة الجزائر 20.
- الناجحون من مدرسة دار الحديث وحدها 35.

وهذا معناه أنّ الناجحين منها نحو الثلث من مجموع الناجحين على مستوى الوطن، وأكثر من النصف بالنسبة لكل من عمالتي قسنطينة ووهران، وأكثر من الناجحين في عمالة الجزائر.

---

(1) - محمد الصالح رمضان، «مدرسة دار الحديث بتلمسان نظرة عامة حول تدشينها ومكانتها بين المدارس» بمناسبة الذكرى الخمسين لتدشينها، سنة 1987م.

(2) - جريدة البصائر العدد 202، السلسلة الثانية الصادر بتاريخ 10 محرّم 1372هـ الموافق 24 - 9 - 1952.

المسرح بدار الحديث:

برز نوع من النشاط المسرحي بدار الحديث مع بداية الأربعينيات، وكان مؤسّسه ومديره محمد دالي يوسف، ومن بين أعضائه الممثلين: المختار بابا أحمد، بومدين بوعلو، مصطفى الشاوي بودغن محمد حدّادي، محمد صوفي محمد الأمين مرزوق ومحمد بابا أحمد، وغيرهم.

كان هؤلاء التلاميذ ينشطون أيضا في جمعية أحباب الكتاب، وكانوا يقومون بروايات اجتماعية وثقافية لها معاني سياسية، ومن بين الروايات التي مثّلوها رواية «أنا بعل» «Anibal»، التي كتب روايتها السيد محمد دالي يوسف وهي شخصية بربرية لها تاريخ كبير.

وقد أسس محمد بابا أحمد -وهو أحد تلامذة دار الحديث- مسرحا مستقلا سمّاه: «مسرح الكوكب التلمساني» (Astre Théâtrale Tlemcenien (ATT، وكان له صدى كبير في تلمسان وخارجها كمدينة معسكر وسيدي بلعباس ومستغانم وغيرها من مدن عمالة وهران. كما أنشأ السيد شيعلي محمد مسرحا آخر ونجح هو الآخر فيه، وللإشارة فإن هؤلاء كان لهم الاعتماد من قبل الإدارة الفرنسية مع التضييق والمراقبة الشديدة لكن بدون إعانات مالية.

نشيد لغتي: هذا النشيد كان يردّد في قاعة المسرح بدار الحديث في المناسبات كالأعياد والمولد النبوي.

لغة الأمجاد منذُ يَعرُبِلُغتي
ولسان الحقّ من عهد النبيّ لُغتي
مجدُها مجدي وتاريخ أبي لُغتي
لُغتي، ديني، وطني

على الصورة بعض معلمي دار الحديث: الشيخ محمد ملوكة والشيخ سيد أحمد الشاوي بودغن والشيخ المختار الصبان والشيخ محمد بابا أحمد مع بعض التلميذات.

معلّمو دار الحديث سنة 1949: من اليمين إلى اليسار: المختار الصبان – صالح زروق – محمد الصالح رمضان (مدير المدرسة)- محمد بابا أحمد – عبد الله بوعنان – محمد ملوكة.

المدارس التابعة لجمعية العلماء المسلمين بولاية تلمسان:

لقد اهتمت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للتمكين لمشروعها التربوي التعليمي ببناء المدارس، وأسّستها لتكون منارات يهتدي بها الشعب الجزائري لتضيء له طريق الهدى بعدما خيّم عليه ظلام الجهل والخرافات، وتنيرله طريق التحرير من ربقة الاستعمار الثقافي والعسكري، وتواجه المدارس الفرنسية التي تعمل على نشر المشروع التغريبي في الجزائر مثل المدرسة الفرانكو إسلامية «Franco-Musulmane».

وهذه فيما يلي نماذج لهذه المدارس في ناحية تلمسان وما جاورها بعد مدرسة دريبة زرار التي ذكرناها في موضعها ومدرسة دار الحديث وملحقاتها، نذكرها حسب الترتيب الزمني الذي دشّنت فيه.

1 - مدرسة التربية والتعليم بالغزوات:

افتتحت هذه المدرسة يوم 26 - 09 - 1948 بحضور وفود وجمعيات ومدارس العمالة تحت إشراف الشيخ البشير الإبراهيمي، ودرّس بها عدّة معلمين نذكر منهم: محمد بن البشير القباطي، محمد القباطي، أحمد حساين، عبد الحفيظ الثعالبي، محمد الخياطي، الجيلالي الحريري، أحمد صدقاوي، وعبد القادر قدّاح. وأغلقت يوم 09 - 09 - 1957 وبقي المسجد يؤدي وظيفته بحذر.

2 - مدرسة التعليم العربي بأولاد ميمون:

تأسّست رسميا في أوائل سنة 1948، ودرس بها أزيد من ستّين تلميذا وتلميذة في البداية، وعمل بها الأساتذة التالية أسماؤهم: الشيخ لخضر القبّاطي والشيخ الصدّيق من قسنطينة والشيخ بن عودة علي.

3 - مدرسة عبد المؤمن بن علي بندرومة:

تمّ افتتاح هذه المدرسة يوم 11 - 09 - 1949 بحضور الشيخ البشير

الإبراهيمي الذي خطب في الحاضرين وشكر الأمة الندرومية على مجهوداتها وأطلق على المدرسة اسم (عبد المؤمن بن علي)، وعين لإدارة المدرسة والإرشاد في المسجد الأستاذ عبد الوهاب بن منصور أحد أساتذة دار الحديث، ثم توسعت وكان افتتاحها الثاني يوم 13 يونيو 1954 م تحت إشراف الشيخ العربي التبسي وحضرته العمالات الثلاث (قسنطينة ووهران والجزائر)، كما حضره الشيخ عبد اللطيف سلطاني والشيخ السعيد الصالحي والشيخ السعيد الزموشي والشيخ عبد القادر الياجوري والأستاذ محمد الحسن فضلاء، وغيرهم، وعمل عدّة معلمين منهم عبد الباقي ابن الشيخ الحسين، عبد الوهاب بن منصور عبد الله ركيبي، الصالح بن الطامة، محمد معطلة، محمد بن يلس، السنوسي دلاي يخلف بوعناني، الصالح ميميش، رابح عيسوس، محمد الزاوي، علي عيساوي الزهراء البوجاني، كريمة بن الحسين، فاطمة نورين، فاتحة بونخالة، وأغلقت سنة 1956.

4 - مدرسة التربية والتعليم بالرمشي:

تأسست هذه سنة 1943 من قبل الأستاذ الهبري المجاوي، واشتملت على قسم واحد استأجرته الجمعية، ووزّع التلاميذ أفواجا يدرس كل فوج في الساعة المحدّدة له، ثمّ جدّدت في آخر الأربعينيات وازداد عدد أقسامها، وكان من أبرز معلميها الأستاذ رابح بخوش، والشيخ الجوري السوفي، والمولود بودلال، وأحمد ميراوي، وعلي بن المكي، وأغلقت أثناء ثورة التحرير.

5 - مدرسة دار الآداب بالحنايا:

كانت في البداية قسم واحد لكنّه لم يكف، ثمّ جدّدت سنة 1948، فتمّ بناء ثلاثة أقسام ومسجد ومكتبين أحدهما للشعبة والجمعية والآخر للمدرسة وافتتحت يوم الأحد 24 شعبان 1369هـ الموافق ليوم 11 جوان 1950م، ودرّس بها عدّة معلمين منهم الأستاذ الجيلالي حجّاج، وعبد الحفيظ الثعالبي والطيب

الزتيلي وأحمد بن حمّو وأحمد بلقاسم مروك وعبد الله بن كعلول، ورشيدة بخشي.

6 - مدرسة التربية والتعليم بمغنية:

تأسست سنة 1943م وكانت عبارة عن محلّ لتعليم التلاميذ والتلميذات ثم توسعت سنة 1951م فأصبحت تضمّ أربعة أقسام ومسجدا وإدارة، يتردّد عليها 200 تلميذ وتلميذة، وكان افتتاحها تحت إشراف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وعدد كبير من المرشدين والمعلمين، منهم محمد القباطي، محمد الخياطي، محمد الطيب الجيجلي، بلقاسم ماروك، أحمد المختار، محمد منيع، السعدي محمود، محمد بوزار، أحمد بري، أحمد بركات، محمد الصالح أوسالم، جميلة مهري، وتوقفت سنة 1956م.

7 - مدرسة أولاد سيدي الحاج:

افتتحت يوم 25 - 09 - 1952م بقيادة الشيخ الياجوري والشيخ السعيد الزمّوشي، والشيخ مصباح، وعيّن الشيخ غريسي عمر من وادي الفضّة مديرا ومعلّما بالمدرسة بمساعدة بعض طلبة أهل القرية مثل ماحي عبد القادر وماحي محمد، وبلغ عدد الطلبة 150 طالب من بينهم 30 فتاة. وأغلقت سنة 1955م.

8 - مدرسة دار القرآن بعين غرابة :

شُرع في بنائها سنة 1949م، وكانت تضمّ قسمين كبيرين وسكنا للمعلّمين وكان افتتاحها يوم 28 - 9 - 1952 م بحضور الشيخ السعيد الزموشي معتمد الجمعية بعمالة وهران والشيخ عبد الوهاب بن منصور مدير مدرسة عبد المؤمن بن علي بندرومة والشيخ محمد الصالح رمضان مدير دار الحديث آنذاك، وشرعت في عملها الإصلاحي تحت إشراف الشيخ مصباح حويذق وبعض المعلمين مثل الأخضر حفيز ومحمّد بن الحسين وأمحمد أبو عبد الرحمن، وأغلقت سنة 1956م.

9 - مدرسة سبدو:

تأسّست يوم 27 - 3 - 1945م، وكانت عبارة عن محل استأجرت الجمعية للصلاة وإقامة دروس الوعظ والإرشاد والتفقه في الدين، وأشرف على تأسيسها السيد محمد بن حلوش والحاج أحمد شيخاوي وابنه عبد القادر شيخاوي، ثم توسّعت وكان افتتاحها يوم 27 - 09 - 1953 م بإشراف الشيخ عبد الطيف سلطاني والشيخ السعيد الزموشي والشيخ عبد الوهّاب بن منصور وغيرهم، وعمل بها عدّة معلّمين من بينهم الأستاذ عمّار مطاطلة والأستاذ طاهري بلقاسم، والأستاذ لبقع الأخضر الغويني والأستاذ عزّاوي عبد الرحمن والأستاذ زيزي الطيّب، وأُغلقت سنة 1956م.

10 - مدرسة عائشة:

دُشّنت من قبل شيوخ جمعية العلماء آنذاك وعلى رأسهم الشيخ العربي التبسي رحمه الله سنة 1953م، وكانت عبارة عن شقق سكنية بجانب مدرسة دار الحديث.

بدأ التدريس فيها للإناث، واستمر إلى حين اندلاع ثورة نوفمبر 1954م، وكان عدد أقسامها تسعة وعدد تلاميذها مع تلاميذ دار الحديث ألفان.

الشيخ العربي التبسي
يفتتح مدرسة عائشة
وعلى يمينه
الشيخ
السعيد الزموشي.

في الصورة معلمات مدرسة عائشة أم المؤمنين يتوسطهن الإمام البشير الإبراهيمي، وخلفه مدير المدرسة الأستاذ محمد الصالح رمضان.

11 - مدرسة التربية والتعليم ببوحلو: [1]

تأسست هذه المدرسة التي تشتمل على قسم واحد يوم 10 - 05 - 1953 م بحضور الشيخ السعيد الزموشي وعمل بها عدّة معلمين منهم محمد غربي بن الغربي، والشيخ عمر والشيخ رابح.

12 - مدرسة التربية والتعليم بصبرة:

تشتمل هذه المدرسة على ثلاثة أقسام يتردّد عليها أكثر من 200 تلميذ وتلميذة تحت إشراف وتوجيه الأستاذ العربي محمد الرميلي ومساعدة رفيقه الشيخ محمد القاسمي وكذا أعضاء الشعبة الذين نذكر منهم: السيد حميدة بن يلس والسيد يحي منصور والسيد محمد بن هامل وغيرهم، وافتتحت يوم 25 - 04 - 1954 بحضور الشيخ السعيد الزموشي، والأستاذ عبد الوهاب بن منصور وغيرهم.

13 - مدرسة التربية والتعليم بأولاد سيدي خالد (بوحسون):

دشّنت هذه المدرسة بتاريخ 28- 09 - 1952 م من قبل الشيخ العربي التبسي رحمه الله في شهر سبتمبر1953م، وألقى خطابا مطوّلا، تعرّض خلاله إلى جملة من القيم الأخلاقيّة، والدينيّة، والسياسية، كنبذ الجهل، والثورة على الخرافات، ومحاربة البدع، وتجنّب الظلم. ومما جاء في هذه الكلمة: «**إنّ جبال الأوراس التي تحتضن الجهاد، تنادي جبال تلمسان، فكونوا مستعدّين لتلبية النداء**».

وانطلقت المدرسة حسب برنامجها المسطّر في تعليم الصّغار اللّغة العربية، وحفظ القرآن الكريم، وتقديم دروس مسائية للكبار، ذكورا وإناثا في الوعظ والإرشاد، وتصحيح مفهوم الدّين الإسلامي، تحت إشراف الشّيخين بن عدّة ميلود والشّهيد درقال محمد، وأغلقت في أكتوبر1955م.

---

(1) - المرجع السابق، ص (30).

14 - مدرسة التربية والتعليم بأولاد عدّو (عرش قريعن):

كانت عبارة عن مسجد متواضع في القرية اتخذ أهل الإصلاح منه مدرسة في أوقات مخصّصة للتدريس، وقاعة للصلوات مع دروس للوعظ والإرشاد والفقه في الدين، تأسّست بها شعبة جمعية العلماء المسلمين وترأسها السيد بن أحمد الأخضر ولد بليل، وكان الأستاذ محمد بن عبد العزيز الهذلي هو مرشدها العام.

15 - مدرسة أمّ العلو:

اشترى أهل القرية قطعة أرض يوم 02 سبتمبر 1954م وبنوا بها مدرسة لتدريس القرآن الكريم، لكنّها مع الأسف الشديد هدمت بعد مدّة بفعل الإهمال، واستعملت أحجارها وبعض عتادها كالسبائك الحديدية في بناء مسجد صلاح الدّين الأيوبي الذي افتتح سنة 1975م.